نظرات

بقلم

محمد عبد الوهاب صالح

ناظر مدرسة الشوبك

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١	تقريظ الكتاب لفاضلين
٢	المقدمة بقلم المؤلف والاهداء
٤	السعادة
٨	ذات الجاذبية
١٤	خليفة
١٨	الغريب
٢٥	فى الدنيا الجديدة
٢٩	ذكاء الكتكوت
٣٢	هيلين
٤٣	الريف فى الليل
٤٧	فى عالم الجن
٥٤	عبد الحميد بك
٦٢	فردوس الحياة

(بالكتاب ثمانية رسوم)

﴿تقريظ لحضرة الأستاذ الجليل ابراهيم افندى عمر المدرس بمعلمات بنها﴾

أعرف محمد افندى عبد الوهاب صالح أديبا مفطوراً منذ نعومة أظفاره ، وقد كنت أستاذه حينا من الدهر ، فلاحظت أنه بهيم بالأدب هياما قراءة وكتابة ، وقد كان فى المدرسة أول أقرانه فى الانشاء العربى ، فلا غرابة أن يكتب هذه الموضوعات الشيقة المفيدة وأول الغيث قطر ثم ينهمل .

ابراهيم رضوان عمر : مدرس بمعلمات بنها : فى ٦ يوليه سنة ٩٣٢

لحضرة الأديب الفاضل شفيق افندى الغزولى : ناظر مدرسة الكتامية

أطلعت على كتابك : نظرات : وإنى لأراها نظرات صائبة وفى « المليان » أكثر الله من أمثالك ؟ المخلص

شفيق احمد الغزولى

ناظر مدرسة الكتامية منوفية فى ٥ يوليه سنة ١٩٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه القصص التى ستقابلك أيها القارئ العزيز حقيقية واقعية ليس فيها شئ من إفك الخيال وزور الأوهام . إلا بقدر ما يجعلها إلى النفس شهية مستطابة . بعضها موضوع وبعضها مترجم .

وقد نشرنا منها « بالسياسة الأسبوعية قصة المرأة ذات الجاذبية » في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ كما نشرنا منها « بمجلة شهرزاد لصاحبها الأستاذ المرصفى قصة الغريب » فى عددها الصادر بتاريخ ١٤ مايو سنة ٩٣١

ومرادى أن أبسط بنشرها أمام الأعين بعض صور

هذه الحياة الدنيا التى وقعت فى أوقات مختلفة وبقع متباينة وليس كالذكرى تنفع المؤمنين . أسأل الله لى ولك التوفيق ؟

المخلص محمد عبدالوهاب صالح رئيس مدرسة الشوبك الإلزامية مركز شبين القناطر قليوبية .

تحريراً في يوم الاربعاء ١٧ شوال سنة ٣٥٠ و ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٢ . ؟

﴿ الإهداء ﴾

إلى حضرة والدى العزيز الشيخ عبد الوهاب أحمد صالح أهدى عملى هذا ، اعترافا منى بفضله الغزير علينا أنا وإخوتى لما قاساه فى سبيل تربيتنا ؟

المخلص

فى ٢٠ يوليه سنة ٩٣٢ محمد عبد الوهاب صالح

السعادة

السعادة درجات : أولاها خلو النفس من الألم مطلقا سواء كان ألما نفسيا أو بدنيا ، وهذه الحال هى مايسميه الحكماء (هدوء البال وراحة الضمير) ثم تتدرج درجاتها فى السمو والرفعة على حسب تفاوت اللذائذ المختلفة فى العمر والقوة

والسعادة هى مطلب النفوس الوحيد فى هذه الحياة وفيما بعدها. فتنهم حسنها البديع وجمالها النضير وابتسامتها العذبة وحلاوتها التى تسكر من ذاقها فتدلهوا فى حبها وتصبوا فى هواها وراحوا يطلبونها فى كل مظان وجودها كمعانقة الجميلات واحتضان الغانيات والتمتع بزاهر الورود على اختلاف أنواعها ، واشتمام

رمز السعادة

أريج عبقها : والتمتع بما فى الطبيعة كلها من حقول خضراء

وحدائق غناء ، وجداول يتسلسل الماء فيها تسلسلا رفيقا فى ثوب فضى قشيب ، وينتشون بما عند ذوى الأصوات الحسنة من نغمات شجية وأغاريد مطربة وألحان تفعل بالقلوب فعل الحب بالعقول : وبرغم جهودهم فى سبيلها وتهالكهم على طلبها ، قليل منهم الموفق السعيد .

أما الدستور الذى يجب أن يتبعه كل إنسان ليحظى بالسعادة وينال وصالها ، ويرتشف من رضاب ثغرها فهو أولا :

أن يحصر أنواع الألم التى تنتاب النفس البشرية فى حياتيها الدنيا والأخرى، ثم يتحاشى جهده الوقوع فى أسبابها حتى لا يصيبه الألم الذى يترتب عليها

فإن وقع فى أسباب الآلام رغما عنه فليتجلد للألم الذى حل بنفسه بإرادة جبارة ، مؤسيا نفسه بما حصل لغيرها من الناس فى الأزمان الغابرة والحاضرة ، حاملا لها على الاعتقاد بأن الألم الذى يلابسها هين ضعيف أقل من أن يوهنها أو يؤنها ، وعلى الرضا بالقضاء والقدر واعتقاد أن ما وقع إرادة الله وفعله ، والله تعالى أبر بعباده وأرحم من أمهاتهم وآبائهم بل ومن نفوسهم ، ولا يصدر عنه إلا كل ما فيه خير ومصلحة لعبده

فانه إن فعل ذلك بالدقة والضبط والعناية سعد بمشيئة الله ، ولا

يظن ظان أن ذلك سهل على كل إنسان فعله بل إنه سهل فقط على أصحاب الإرادات الصلبة والعزائم الفولاذية

أما الآلام فكثيرة جداً ولكنها تنحصر فى نوعين اثنين آلام نفسية : وهى كالحزن والخوف والملل والندم وقس عليهم : والثانية آلام بدنية : وهى كل ما أتى عن طريق البدن كالأمراض والجروح وغيرها من أمثالها

فعلى الإنسان أن يتحاشى جهده الوقوع تحت طائلتها وأن يحاربها بشجاعة إذا مانزلت به رغما عنه بالوسائل التى مر ذكرها ومن أراد الاستزادة من السعادة فعليه أن يعرف وسائل الإكثار من اللذائذ وطريقة الحصول على أحلاها طعما وألذها مذاقا

ومن أراد أن يقدر على تحاشى أسباب الآلام قبل وقوعها وبعد وقوعها فليقو نفسه خلقياً وعقليا وجسمياً : فأما السبيل إلى تقوية الأولى : فبالتزام الصفات السعيدة : كالصبر عند الشدائد وعند وقوع الآلام والخطوب الجسام والشجاعة وقوة الإرادة وأن يكون هادئا ساكنا بعيد النظر فى الأمور يزن الأمور قبل الإقدام عليها بميزان العقل الصحيح لا بميزان الهوى والعواطف الغاشمة الجهول : وبالجملة يكون آخذا بزمام كل فضيلة قاهراً لكل رذيلة تجلب عليه الهلاك والدمار

وأما السبيل إلى تقوية الجسم والعقل فليطلبها فى التآليف الصحية التى لاتحصى. قال الحكيم الرومانى العظيم سنكا : « سعادة كل إنسان فى يده وتحت تصرفه فإن أرادها وسعى إليها من دون أن يلوى على شئ آخر فقل له سلاما ستكون مع الفائزين، وإذا أوقع نفسه فى شقاء فالذنب ذنبه والجريمة واقعة عليه : فالرزانة والسكون والهدوء والتبصر والتفكر والأناة كل هذه الصفات الكسبية لا تستغنى السعادة عنها ولا تكون إلا بها فمن تلك الصفات يمكن الإنسان أن يتخذ أعوانا ونصراء يعينونه عند الحاجة ويشدون أزره متى شاء ، والعقل واق من النفس وما تجره من أنواع الشقاء وصنوف البلاء ، ولو لم يكن أيضا صبوراً على احتمال المكاره شهما فى صدمات الدهر لما لبث إلا عشية أو ضحاها ثم انقلب مع الخاسرين » .

وما شقى الأشقياء إلا لأنهم حادوا عن هذا السبيل الذى ذكرت إما جهلا منهم ، وإما إنهم يعلمون السبيل ولكن صدفت بهم عنه إرادة ضعيفة خائرة وأخلاق واهنة جرفتها سيول عواطف النفس الطائشة ومقاصدها الغشوم

فلو أن المريض تحاشى أسباب المرض لما وقع فيه ، ولو أنه قاوم الألم الناتج عنه بعد وقوعه وصغر من شأنه أمام نفسه لهان عليه

حتى لا يكاد يشعر به ، وليجرب من يقدر

ولو أن المحزون تحاشى أسباب الحزن لما وقع فيه ولو فاوم الألم الناشئ عن الحزن فى نفسه بالوسائل التى مر بك ذكرها لما مكث معه إلا قليلا ثم انقشع : وهكذا بقية الآلام

والله أسأل أن يقينا من الهم والغم وأن يوفقنا لما فيه هناؤنا وسعادتنا إنه كريم : آمين ؟

ذات الجاذبية (١)

يروى التاريخ عن أحد ملوك « إيتاليا الذين كانوا يحكمون فى القرن العاشر الميلادى أنه كان يسير ذات مرة فى الجناح المخاص بالحرس من ـ قصره ـ فى الهزيع الأخير من الليل على غير علم من أحد فلمح فى إحدى الحجرات ، أميرة من الأميرات تعانق ضابطا من الضباط و يعانقها بحالة تدل على الحب المفرط والغرام الشديد ! . . .

---

(١) « عن الإيطالية بتصرف نشرتها للمؤلف» « السياسة الأسبوعية بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ » « وذات الجاذبية هى المرأة الحسناء »

﴿ الضابط والأميرة فى موقفهما السالف الذكر ﴾

فاشتعلت فى قلبه نار الغيرة اشتعالا . وعاد سريعا إلى حجرته ودق بشدة نواقيس « القصر » فهب السكان جميعا من نومهم وهم معتقدون أنهم فى خطر محرق و بلاء عظيم : وهاج « القصر » بهم وماج . و زلزلت بهم سقوفه وحجراته ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى وقفوا على الحقيقة وفهموا جلبة الأمر . فتطامنت قلوبهم وسكنت حركاتهم :

وجئ بالآثمين فى الهوى ، والمجرمين فى الصبابة ! كى ينالا أشد العقاب على خدشهما للشرف الملكى وتلويثهما كرامة العرش فتقدم إلى الملك جميع المقربين منه وأصحاب النفوذ عنده ملتمسين منه الرحمة « بالعاشقين » الشقيين . فخيب كل رجاء وداس كل شفاعة وجاءت نوبة امرأة تدعى « مدلين » الساحرة (كما كانوا يسمونها) كانت تعيش فى البلاط . فدخلت على الملك تتهادى فى مشيتها تهادى الأغصان تعبث بها نسمات الهواء ، وتكاد من فرط رقتها تذوب . . ! وخرجت من حضرته وهى تحمل ، للعاشقين » العفو الشامل والغفران التام . . ؟

فأخذ على الملك هذا الأمر كبراء الدولة وعظماؤها ووصلت إلى مسامعه أقوالهم ، فأراد أن يصد عن نفسه كيدهم ، فدعاهم إلى مأدبة أقامها لهم

وأتت فى الحفل « مادلين » وجرت أنامله على أوتار العود والمزهر فاهتزت لسحر جمالها وعذوبة لحنها أوتار قلوب الحاضرين وجاشت أخيلتهم بالصور اللذيذة والمرئيات البهجة فقاموا يتراقصون ومع الأنغام يتثنون ويتمايلون وكان شأنهم كجماعة من السكرى لعبت برءوسهم رنات الكؤوس وطاشت بألبابهم لذاذة الخمر (١) وعادوا بعد ذلك إلى بيوتهم وكلهم أخو صبابة وقتيل هوى .

وحدثنى « صديق » قال كان معنا بالجامعة طالبة تدعى « روجينا » تفتر ثغرها عن مثل الدر إذا تبسمت وتجعلك عبدا لحبها وأسيراً لهواها لو أنها إليك رنت (٢) وفى النفس رخامة صوتها وشجى نغماتها ما ليس

روجينا تلقى خطبتها

(١) الخمر (٢) نظرت

لنغمات الموسيقى وتغريدات القمارى [١] من اللذ والطرب .

إنتهت دراستنا من الجامعة فوقفت تودعنا بخطبتها الآتية .

إخوانى و إخوانى أرجو لكم هناء دائما على مر الدهور وكر الأعوام . وحياة لا تشوبها الأكدار ولا تنغص صفوها العلل وأطلب لكم من المولى تقدست ذاته انشراحا غير منقطع وسرورا لا ينتهى أمده وأن يتحفكم بكل ما تشتهون من طيبات الحياة ومناعمها ولذاذتها ومباهجها . ويمنحكم من المجد الذروة [٢] ومن رفعة الشأن النهاية والقمة : وختاما أستودعكم الله فهو أوثق من تحفظ لديهم الودائع والسلام » قال « صديق » فوالله ما أجد أعذب إلى نفسى من كلمات تلا « الحسناء » ولا أرسخ فى ذكراتى منها .

وقد حكى التاريخ : أنه لما اشتعلت نار الحرب بين « تركيا روسيا » فى القرن الثامن عشر على الحدود التركية ، كان على رأس الجيش التركى جندى باسل وقائد محنك هو « بلطجى باشا » وعلى رأس الروس « بطرس الأكبر » ذلكم الرجل الذى يفخر التاريخ بذكره ، ويعتز بسيرته : وعند ما دارت رحى الحرب بين الفريقين

---

(١) طائر غرد (٢) النهاية .

وتعانقت فوق السواعد بيضهم تحت العراء كأنها غادات
وترنحت سمر القنا نشوانه بدم الطلى فتزحزحت هامات

لم تمض فترة قصيرة حتى أحاط الجيش التركى « بالروس » إحاطة السوار بالمعصم[1] . وكاد يقضى عليه عن آخره وينتصر عليه انتصارا حاسما وطارت الأخبار بذلك إلى أفراد الشعب التركى فى قراهم ومدنهم ، فأقاموا الزينات ودقوا الطبول ابتهاجا بهذا النصر المبين والفوز العظيم

ولكن حدث أن قيصر الروس الداهية قدم زوجته « كاترين » للفصل بينه وبين غريمه الجبار « بلطجى باشا » حينما رأى أن انهزامه محققا وأنه كاد أن يقبض عليه ويؤسر واختلت « كاترين » (بالقائد) برهة من الزمن قتلته فيها بسهام عينيها ، وسلبته إرادته وعقله بسحر لحظيها ! ! ثم طلبت منه فك الحصار عن جيش زوجها وأن يأمر جيشه بإلقاء سلاحه وتفرق « وحداته » فأطاع صاغرا

وما هى إلا كرة الطرف حتى خدعته وأوعزت إلى جيشها فحاصر الترك وكاد يفنيهم عن آخرهم وأسر قائدهم وطارت تلك

---

(١) مقدم الساعد .

الأخبار المشئومة فى ومضة البرق إلى أبناء الأمة التركية الأسيفة فأطفأوا القناديل وهدموا الزينات ! وأقاموا اشارات الحداد فى كل مكان . وعم الأسى جميع طبقات الشعب على اختلاف أنواعها وانقلبت محافل السرور إلى مناحات وجنائز : وهكذا استطاعت « كاترين » أن تفعل بقوة تأثير ابتساماتها وجاذبية جمالها ماعجزت عنه الجيوش الجرارة والكتائب الزاخرة . . ؟ وهكذا (يلحس جمال المرأة العقول ! !)

خليفة

فقدت امرأة من نساء إحدى العائلات التى تقطن إحدى قرى [القليوبية] حلية من الذهب (كردان) وحصرت شبهتها فى إحدى النسوة اللائى يقمن معها بالمنزل : وطلبتها منها فأنكرت هذه وأصرت على إنكارها : واختصمتا كثيراً وتنازعتا ولم يجد كل ذلك شيئا

وفى ذات يوم نزل بالقرية رجل غريب يدعى « خليفة » يدّعى معرفة الغيبيات بوساطة مايعرف من علوم الروحانى والسحر . فدعته الفاقدة : وقصت عليه قصتها : وسألته إن كان يستطيع أن يرد عليها ـ حليتها ـ بواسطة « سحره وتعاويذه » وله نظير ذلك منها أجر قدره جنيه مصرى ؟ فاجاب الرجل بنعم : وجاءت أفراد العائلة

كلها والجيران وجيران الجيران يتفرجون على ما يأتى به هذا الرجل من عمل غريب . .

وشرع « خليفة » فى العمل فطلب أن يهيأ له محلان مظلمان داخل بعضهما [أودة وخازنة] وأن ينظفا تنظيفا جيداً ويفرشا بأفخر فرش ممكن حتى يتفق المكان مع عظمة جلالة « ملك الجن » كما زعم . . وطلب إعداد مأدبة لذيذة يكون من محتوياتها (ديك رومى) محمر تحميراً جيداً [لصاحب الجلالة الجن الأحمر] فتم له كل ذلك : ثم دعا اليه النسوة المتهمات وطلب إليهن على ملأ من الحاضرين أن يستحممن حتى يطهرن وناول كلا منهن حبة صغيرة ليلعها حتى لا يصبن بأذى فى حضرة (ملك الجن) وحاشيته ومازال يسمعهن من أمثال ذلك الكلام الرهيب و ينشدد معهن فى تنفيذ أوامره بالضبط خشية أن يؤذين كما يزعم : حتى ملأ قلوبهن رهبة وأفعمها رعبا وهلعا وحتى ماشكت السارقة مطلقا فى أنه صادق فى زعمه وأنه سيكشف سرها ، و يفضح أمرها لامحالة و بدا عليها الخبال ، وظهرت على محياها علامات الجريمة ، وأدرك ـ خليفة ـ ذلك بذكائه ودهائه وأسره فى نفسه ! ثم دخل الغرفة وأغلقها على نفسه : وجلس حتى أكل [الديك الرومى] ثم أطلق البخور ، وقرأ بعض « التعاويذ » والكلمات غير المفهومة بصوت مسموع تارة

و بصوت خافت تارة أخرى .ثم أحدث حركةوضجة عظيمة حتى ظن الحاضرون بالخارج أن السقف قد ثقب وتشقق : وتلا ذلك بصوت غريب أجش مخيف كأنه صوت جن حقيقة يخاطبه بقوله : السلام عليكم : وما هو إلا صوته هو يغيره « نفير » خاص أخفاه معه لهذا الغرض ثم سمعه الحاضرون يرد بصوته الحقيقى على الصوت السابق : فيقول عليكم السلام ورحمة الله وبركاته: مرحبا ياصاحب الجلالة ـ ثم سكت عن الحركة والكلام مدة وجيزة

ثم قام وفتح باب الحجرة قليلا وأطل برأسه منه ونادى المرأة الاولى باسمها : فدخلت وأغلق الباب ولم تكن هى السارقة ـ وقدعلم ذلك هو أيضا لما ارتآه منها من عدم المبالاة التى تبدو على المتهم الذى يعتقد فى نفسه البراءة من جرمه ـ إلا أنه إخفاء لذات نفسه سألها أن تأتى (بالكردان) قبل أن يكلف [الجن الأحمر] بالمجئ به ويفضحها بين الناس ولكنها أكدت له (فى شجاعة البرئ) أنها لم تسرقه ولم تعلم السارقة : فقال : فى لهجة أوهمتها أن أمرها لم ينته بعد وأنها ستدعى إلى التحقيق مرة أخرى : طيب ادخلى هنا الآن : وأمرها فدخلت « الأودة الداخلية » بعد أن أوصاها بألا تتكلم أبدا وهى فى مكانها هذا ولا تحدث أية حركة خوفا من غضب « ملك الجن » وحاشيته : فأجابت المرأة بالسمع والطاعة

ثم نادى الثانية ثم الثالثة ولم تكونا سارقتين أيضا وفعل معهما ما فعل مع الأولى !

وجاء دور الأخيرة وهى السارقة حقا وقد عرف « خليفة » ذلك من قبل كما أسلفنا : ولم يكن تأخيره فى استدعائها إلا حكمة منه وكياسة : وهى أن يزيد وسواسها وخوفها حتى يحملها بذلك على الاعتراف بسرعة وقد حدث ما أراد : فما كاد يغلق الباب حتى ذعرت ذعراً شديداً وتوسلت إليه بكل عزيز لديه ! أن يخفى أمرها وهى تأتى « بالكردان » فتعهد لها بذلك : ثم خرجت متظاهرة بانها نسيت شيئا سوف تأتى به وعادت بعد قليل الى خليفة ومعها « الكردان » فانتظر هو برهة من الزمن ثم خرج معلنا الحضور بأن [الجن الأحمر] أتى ـ بالكردان ـ المفقود إلا أنه أمر بكتمان اسم السارقة [لأن جلالته لا يحب الفضيحة فزاد اعتقاد القوم به وزادوا فى تكريمه وأعطوه فوق ما أراد . . وأمثال خليفة كثيرون جداً فى « الريف » وقد أفسدوا على الناس عقائدهم وأخلاقهم ، وعاثوا فى أعراضهم وأموالهم فساداً .

الغريب (١)

فى شتاء عام سنة ٩٢١ ميلادية صدر أمر الحكومة القاضى بسفرى إلى الألزاس واللورين لأتسلم مهام منصبى الجديد . وصدر مثل ذلك الأمر إلى رفيق لى أيضا . فحزنا أيما حزن على فراقنا لعروس المدن [باريس] مسقط الرأس ومقر الأعزة من الاحبة والأهل ولم لا وحب الوطن غريزة فى النفس لا تقاوم والحنين اليه طبع فيها لا يغالب ؟ وماذا ترى أعز على المرء من مكان قضى فيه ربيع الحياة وزهرة الشباب؟ فاذا ما لمعت بخواطر النائين والمنقطعين ذكرى أوطانهم جددت فى نفوسهم ذكريات شبابهم الحلوة ، وعهود صباهم اللذيذة .

وحبب أوطان الرجال اليهموا ما رب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهموا عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وجاءت ساعة الرحيل ، فرحلنا والأسى ملء القلوب ، والدمع يفيض من العيون وهناك لاحظ المستقبلون من «رفاقنا» ما فى النفس من حسرة وفى القلب من لوعة : فراحوا يجتهدون فى تنفيس ما بنا

---

(١) « عن الفرنسية بتصرف » نشرتها للمؤلف «مجلة شهرزاد» بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٣١

والتخفيف عنا . بكل عذب من الأحاديث . ويخففون عنا بكل ممتع من الأقاصيص ، وقد روى أحدهم وهو صديق الحداثة وخدن الطفولة « مسيو لوجارد » ضمن ما رووا القصة العجيبة الآتية : قال كان لى صديق : ابتدأت علاقتى به سنة ١٨٩١ منذ عهد الدراسة وتوثقت أواصر الصداقة بينى و بينه حتى كنت أؤثره على نفسى و يؤثرنى على نفسه :

أخ لى زكى النفس والأصل والفرع يحل محل العين منى والسمع
تمسكت منه إذ بليت إخاءه على حالتى وضع النوائب والرفع

كان كثيرا ما يحدثنى عن حبه لابنة عمه « وخطيبته » والتى تقيم مع أهلها « بالريف » فكنت أطمئنه وأمنيه بالتأهل منها ، والحياة بجانبها حياة كلها نعيم وهناء . شفقة عليه و رحمة به .

وحدث ذات ليلة بينما نستذكر دروسنا معا ، أن ألقى الكتاب من يده وقال : اسمع ياعزيزى « لوجارد » نموذج خطاب سوف أرسله إلى حبيبتى : اسمع :

حبيبتى « جوليا » سلام على تلك الأيام الهنيئة التى قضيتها بجانبك فلقد كنت إبانها رقيق الشعور مرهف الذكاء ، أما الآن : وأنا هنا بعيد عنك : فقد خمدت شعلة ذكائى حتى أصبحت أعجز عن فهم أبسط المسائل و إدراك البديهيات !! ماذا تصنعين بى

ياچوليا . . ؟ أساحرة أنت إلى هذا الحد ياملاكى . . ؟ وما لى أرى الطبيعة هنا كئيبة حزينة فالأشجار ساكنة واجمة لا تداعب النسيم شأنها كل يوم ! والأطيار تنوح بإيقاع من الحزن يذكى لهيب الأسى والرياح ثائرة هائجة لا يستقر لها قرار ! والسماء تبكى من الصباح إلى المساء بدموع غزار . . ؟ لم هذا كله من الطبيعة « ياچوليا » . ؟ . لعلها أحست بألمى فتألمت لى وربما عرفت شأنى فهى تبكى على . شفقة منها ورحمة . شكرا للطبيعة « ياچوليا » وألف شكر لك .

چوليا ولودڤل يتناجيان على خلوة

لودڤل

ثم أخفى وجهه بين كفيه وانفجر باكيا - فتألمت نفسى بين جنبى أمر الألم ، من هذا المشهد المؤثر : وأخذت أطيب خاطره وأسرى عنه بكلمات مناسبة للمقام كما يجب على الصديق لصديقه حتى عادت إليه نفسه التائهة ووفاه رشده المسلوب . . !

مرت الأيام على هذا المنوال ، وجاء وقت امتحان «الليسانس» فخضنا معركته معا وخرجنا فى مقدمة الفائزين ، ورغبت فى النزوح إلى مسقط رأسى بالريف فودعته قبل سفرى وداعا حاراً :

وودعته وبودى لو يودعنى صفو الحياة وأنى لاأودعه

وغادرت العاصمة بما فيها من عجيج وضجيج ، إلى جو الريف الهادئ وحياته الوادعة .

ومضى على فراقنا نصف عام : ولم يصلنى منه كتاب واحد ، مع أنى أرسلت إليه جملة كتب ! فعجبت لهذا الامر وداخلتنى فيه الظنون ، اللهم إلا الشك فى اخلاصه وصدق إخائه .

وبينما أنا جالس بمنزلى ذات يوم ، إذ حضر إلى أبوه وخاله وعمه وسلم القوم والأسى باد على صفحات الوجوه ، والعيون مغرورقة بالدموع ! وبعد أن جلسوا : ابتدرنى والده بقوله : ألم يأت هنا لودقل فقلت : لا يا سيدى ، فحبس صوته وانهمرت عبراته ، فراعنى منه ذلك ارتياعا شديدا ، وأخذت أسرى عن الرجل بكل ما أملك من

وسيلة، حتى سكن عنه الروع وسكت بعد جهد جهيد وتعب شديد :

فقال خاله « إن مسيو لودفل » كان خاطبا لابنة عمه كما تعرف وكان يحبها حب العاشق المتدله والصب المتيم . ! ولو ذقت الحب يا سيدى : لعرفت مقدار ما يلحقه بنفس المحب من الألم

الممض والعذاب الأليم . صورة « جوليا » قبل وفاتها بأيام

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولكن القدر الساخر أبى إلا أن يفجعنا الفجيعة العظمى . !

فاختطفها الموت من أحضاننا واختارها لجوار ربها : فحزن عليها « لودفل » حزنا عرفنا أنه ليس منه بناج .

حتى جاء يوم اختبل فيه عقله الرزين ، وصار بعد ذلك يهذى كالمجانين ، وأخيرا تغفلنا وفر حيث لا نعرف له مقرا ولا ندرى له موطنا .

وهذه هى القصة التى جئناك من أجلها : فألم بى من الحزن ما بقى أثره فى نفسى حتى اليوم ، على هذا الصديق العزيز والخل الوفى و بكيت و بكى القوم حيث لا ينفع البكاء

***

مرت السنون حتى كادت تنمحى تلك الذكرى المؤلمة من نفوسنا و بينما أنا جالس بمكتبى ذات يوم ، إذ جاءنى عامل البريد، وسلمنى خطابا مسجلا عليه خاتم « الدولة الترنسفالية » فأخذتنى من هذا الخطاب الدهشة والغرابة ! و إليك الترجمة

***

صديقى العزيز لوچارد

إن كنت قد نسيتنى فأنا لم أنسك ، أنا الآن أعيش بين الترنسفاليين وفى أرضهم ، غريبا لا أعرف لى قريبا ، وحيداً لا أعرف لى صديقا فقد سافرت إليها خلسة ، منذ تلك اللحظة المشئومة التى

فقدت فيها (ابنة عمى العزيزة) إذ لم أطق البقاء بدارخلفتها ومضت تلك النفس العالية ، التى كان وجودها يملأ على الدنيا بهجة وسروراً فلما ولت ولى معها كل شئ فى الوجود ! وضاقت على الارض بما رحبت ، وأصبحت فى عينى أضيق من سم الخياط ! إن كل شئ هنا غريب على ياصديقى ، فللقوم عادات لا تسيغها سليقتى وطباع لم تألفها غريزتى . وفؤادى يلتهب حنينا إلى أرض الوطن ولكن الحظ العاثر ، أبى إلا أن تنشب هنا حرب ضروس بين الترنسفاليين « والانجليز » وأخشى أن تلتهمنى هذه الحرب فيما تلتهم قبل أن أصل إليكم ! كيف أبى وأهلى ياصديقى ؟ وهل هم أحياءأم أموات؟

أسأل الله الذى يحيط علمه بما فى نفسى من الحسرة وما فى قلبى من الشوق والحنين أن يعيدنى إليكم سالما ؟ صديقك

تحريراً بعاصمة الترنسفال لودڤل

فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩٠٠

وهاهو الآن قد مضى على ورود خطابه ثلاثون سنة . ولم يأت كما كان يرجو ولم يصلنا عنه شئ من الأخبار ، فاللهم أعده الينا سالما إن كان حيا ، وأسكنه فسيح جناتك إن كان قدقضى نحبه[1] فلقد كان علينا عزيزاً .

---

(١) أى مات .

وبرغم أنف المعالى يا صديق العزيز ، إن غيبت عنا شخصك الأيام وأخفتك منا عاديات الزمن

برغم أنف المعالى بان بجدتها ... إن غيبت شخصك الأيام والغير
تفدى النفوس حياه منك غالية ... إن كان يدفع عنها بالفدى ضرر
ياعين جودى بمنهل الدموع على ... من كان ذخرا لريب الدهر يدخر
أو فاسألى الله سلوانا ومصطبرا ... إن كان يجمل سلوان ومصطبر

: ثم سكت :

فى الدنيا الجديدة

جاء فى إحدى المجلات التى تصدر « بنيويورك » أنه كانت توجد بقرية « دنفر » من أعمال الولايات المتحدة « عصابة » يعيش أفرادها وزعيمها بين أهل القرية . ولا يستطيع تعيينهم أو معرفة شخصياتهم الحقيقية أحد . ولا يرونهم إلا وقت الحوادث المريعة التى يأتونها ليلا ونهارا ـ ويرونهم حينذاك فى صور مخيفة وأشكال تقشعر من رؤيتها الأبدان ـ ولذا فقد كان الأهلون دائما فى خوف ووجل وكان يرتاب بعضهم فى بعض ، خوف أن يكون الصديق أو الأخ ليس إلا فردا من أفراد هذه العصابة الرهيبة . ! قد تشكل فى صورة ذلك الصديق أو الأخ ليلحق به أذى أو

يقصد به ضررا .

وحدث فى إبريل سنة ٩٢٧ أنه ظهر على جدران « حجرة نوم السير چنير » من أعيان تلك القرية وثراتها ـ إعلان ـ لا يدرى متى ظهر وهذه صورته :

من « فنز چيروم » رئيس العصابة الغامضة إلى [چنير راول]

بعد التحية : نحيط جنابكم علما أنه قد صدرت إرادة العصابة باختطاف « زوجتكم » الساعه ١٢ من مساء اليوم بالضبط : وهذا للعلم والاحتياط ؟

الرئيس

چيروم

***

فقام « السير راول » من فوره يطلب المدد اللازم من « البوليس ثم إنه سلح جميع خدمه « بالمسدسات » وأحاط قصره من الخارج وملأه من الداخل ـ بالحراس ـ أمام جميع حجراته وفى مماشيه وساحاته وشدد الجميع الرقابة غاية الإمكان ، ولكن حدث رغم كل ذلك الأمر الغريب المدهش ! ذلك أنه لما جاء الميعاد الذى عينه (رئيس العصابة) فى إعلانه بالضبط . رأى حفظة القصر أن زملاءهم يلقون القبض عليهم و يشدون وثاقهم بحبال متينة ، قبل أن يقوموا بأية مقاومة من جانبهم بل غرقوا فى بحار الدهشة والغرابة وخرج

« زميل آخر « بالزوحة » العزيزة من حجرتها الخاصة صامتة ساكتة « ممسوكة اللسان » ثم وضعت داخل سيارة كانت قد حضرت فى الحال عند الباب الخارجى للقصر وسارعت بها كالبرق اللامع وفى فترة وجيزة كانت قداختفت ولم يقف لها أحد على أثر. ثم تركوهم وذهبوا على هذه الحال ، إلى أن جاء شخص آخر يشبه من كافة الوجوه « زميلا لهم » . . . وحلهم من وثاقهم واختفى هو الآخر بدوره ولم يعرف أحد أين ذهب ؟ وتبين بعد أن أولئك الزملاء لم يكونوا سوى أفراد العصابة الذين تشكلوا بقدرة غريبة بصور الزملاء الحقيقيين بعد اختطافهم فى فترة سابقة . . .

***

وذكرت المجلة إحدى مناجيات الزوج الثاكل لزوجته الغائبة إذا أقبل الليل وهدأ الكون وهذه ترجمتها :

ترى أين أنت يازوجتى العزيزة ؟ ما أقسى قلوب بنى الإنسان وأشد تحجرها وصلابتها ! ماذا ينوبهم حتى يفجعونى فيك ويفجعونك فىّ ! ؟ إيه أيتها الدنيا هكذا أنت لا ترحمين البشر ، ويخيل إلىّ أنك تجدين لذة فى إيلامهم ! تبالك من دار قاطنها كراكب متون البحار ، يترقب الموت من حين لآخر ، ويتراءى له شبح الغرق فى الفينة بعد الفينة ! آه ياولين ! كم أنا متألم الآن

لأمك ، وباك الآن لبكائك : اللهم رحماك .

***

لجأ الرجل بعد ذلك إلى رجل « يدعى دالتون» أوقف نفسه على مقاومة العصابات الشريرة ، و إغاثة المظلومين وتأمين الخائفين لوجه الله والإنسانية : اشتهر هذا الرجل بالمهارة فى هذا العمل والقدرة الممتازة عليه حتى إنه قضى على كثير من الأشرار والمجرمين ـ وساعد « البوليس » فى أوقات كثيرة على تثبيت دعائم الأمن ، والضرب على أيدى القتلة والسفاكين

فطلب « دالتون» إلى أحد رجاله الأذكياء أن يبذل جهوده حتى ينضم إلى أعضاء هذه العصابة كى يقف على أسرارها ـ فعرف أن عندهم « تماثيل آدمية » من يراها لا يشك مطلقا فى أنها صور حية تمشى وتتحرك وهذه التماثيل « تكون هيئة جمعية منعقدة ومعها زعيمها » داخل إحدى الحجرات من قصر كثير الغرف متشعب الطرقات يضل فيه من لا يعرف مسالكه ـ و بأرضية الحجرة «جرس كهربائى » يضرب فى حجرة أخرى وهى التى بها يجتمع « أفراد العصابة الحقيقيين » من تلقاء نفسه إذا ما وطئت أرض الحجرة قدم أى مهاجم ـ حتى إذا ما هاجم البوليس الدار على غرة : لمح هذه التماثيل الآدمية قبالة وجهه فظنها أفراد العصابة ـ فأسرع إلى

داخلها فيضرب [الجرس الكهربائى] فى حجرة الاجتماع الحقيقية منذرا إياهم بما هم فيه من خطر : فيجدون فى الهرب قبل أن يقف البوليس لهم على أثر

عرف « دالتون » هذه الأمور كلها بوساطة رجله الذكى فبيت لهم وهاجمهم برجاله الأشداء ليلا فى حجرتهم الحقيقية ولم يشعروا أولئك اللصوص الغلاظ الأكباد إلا وفى وسطهم رجال « دوالتون » يعملون فيهم ـ اللكم والضرب ـ ثم شدوا وثاقهم مع زعيمهم وساقوهم إلى المحاكمة .

وبذلك عادت الزوجة « المفقودة » إلى زوجها وتقوضت أركان عصابة رهيبة ذات خطر (فهل فى مصر دالتون كأمريكا . . ؟)

ذكاء (الكتكوت) (١)

كانت جملة من « الكتاكيت » يبلغ العشرين عددهم ، وقد عهد فى تربيتهم إلى الخادمة الصغيرة « صالحة » وقد امتاز أحدهم وكان عريان الجسم لا ريش له البتة عدا القوادم والخوانى : وقد حدث له حادث فى ماضى حياته ذهب بعينه اليسرى ، فصار صاحبنا

---

(١) هذه القصة من الوقعيات التى شاهدتها بنفسى « مع تصرف قليل » .

« أعور شمالى » وحادث آخر ذهب بقدمه اليمنى ، فصار أيضاً أعرج « رقصى » وكأن المثـل « كل ذى عاهة جبار » ينطبق حتى على الطيور والبهم : فقد كان ذلك « الـكتكوت » الخبيث متربعاً على عرش الزعامة بين زملائه ، فـكانوا أطوع له من بنـانه . كما كان كثير المشاغبة والمشاكسة إلى حد مدهش .

فقد حـدث مرة أن « صالحة » كانت تنظف كومة من حب القمح فى ساحة الدار . فشاهدت ذلك « الـكتكوت » يعلو فوق شئ مرتفع ويصيح بأعلى صوته « كُكُكُو . كُكُكُو . كَاكَاكَا . كِى كِى كِى » ويقوم بحركات غريبة ، فطوراً يقفز إلى الأمام وأخرى إلى الخلف . ويظهر أنه كان يحفظ قول الزعيم العبسى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

فقد ظهر بعـد أن « الخبيث » كان يدبر مع زملائه حملة على حب القمح المذكور ، بالرغم من الخـادمة فدعا إخوانه وتشاور وإياهم فى الهجوم وما لبث أن قسمهم إلى فرقتين ترأس هو إحداهما ، وسارت كل فرقة من ناحية . الأولى من الناحيـة الشرقية والثانية من الناحية الغربيـة « للـكومة ! » وهجموا هجمة صادقة فى وقت واحد « فلخموا صالحة المسكينة » ولم تستطع تفريق شملهم إلا بعد أن استعانت بزميلة أخرى :

وأخذ الغيظ منها مأخـذه . فصممت على إلقاء القبض على « زعيمهم » الخبيث لتجازيه على سوء فعـله بأشـد العقاب و رأى « الـكنـكوت » من عينها ما عزمت عليه فولى هاربا واختفى منها « فى المطبخ » بقية اليوم . وفى أثناء تلك المدة أتلف جميع ما به من مأكل ومشرب : و بعـد طول البحث دخلت « صالحة المطبخ » فرأت رأسا صغيراً يطل و يرجع ! و يظهر و يختفى من بين الأوانى والأثاث وعرفت فيه رأس غريمها الخبيث : فدهشت دهشة عظمى و رأت ما ألحقـه : « الملعون » بالمطبخ من تلف : فازدادت حنقا وغيظا ! فأغلقت الباب وأحكمت النوافذ وقبضت عليه : وحلفت بأحرج الايمان أنها لن تضربه الا بشبشبها القديم على أم ناصيته ! لأنه لا يستحق فى نظرها إلا ضرب « الصرمة ؟ » وعبثا حاولنا إقناعها بالعفو عنه : « فضربته على رأسه حتى أدمتها . »

***

وحدث مرة ثانية أنه أغار على جماعة من النمل كان بينه و بينهم ثأر قديم ـ فصعد على مرتفع كعادته و بعد خطبة طويلة فى إخوانه ملأتهم حمية وحماسا ـ أمرهم فحملوا عصيا صغيرة فى مناقيرهم وأرسلوها فوق ظهورهم كما يفعل رجال الحرب ! ثم تقدمهم إلى الأعداء وهجم بهم وأعمل فى العـدو « الرفس واللـكم » ! إلا أن جماعة من النمل

الذكى علت جسمه العريان وأعملت فيه اللدغ المؤلم ولصقت بجسمه حتى كأنها قطع منه فطوح بعصاه وفر هاربا ! من شدة الألم ـ و بانهزام القائد ينهزم الجنود ـ فانهزم زملاؤه تبعا له وفروا هاربين! إلا أن النملات التى علت جسمه لم تفارقه ، ولم تكف عن اللدغ لحظة ، فصار صاحبنا يجرى هنا وهناك كالمجنون و يصرخ صراخا شديداً « كاك ـ كاك » ومعناه (الغوث ـ الغوث) الغوث يا إخوانى ! ولكن ما من مغيث له ومامن مجيب حتى احمرت عيناه وهد جسمه ووقع مغشيا عليه وحينئذ قفزت من عليه النملات الذكيات وفرت هاربة .

وأراد أن يتأثر لنفسه من [صالحة] فانتهز فرصة غيابها عن القمامة التى جمعتها من نواحى البيت ثم جمع إخوانه وأعمل فيها : [الشحترة والبعزقة] وجاءت صالحة فضبطته وهو متلبس بالجريمة فألقت القبض عليه ـ وسبعت ـ له « بشبشبها » القديم على رأسه حتى أشبعته ، ثم أقسمت أنها لن تضربه فى المرة الثانية إن عاد [إلا على عورته !] فلله دره « من كتكوت غريب » ؟ .

هيلين

سمع « ميلانو » صديقه العزيز « مسيو موريس » يطنب فى

مدح فتاة تدعى (هيلين) وهى طالبة بالجامعة التى يدرس فيها هذا الأخير ، ويثنى على جمالها وسمو أخلاقها ، فعشقها « ميلانو » قبل أن يراها : والأذن تعشق قبل العين أحيانا : ولم يمض زمن كبير حتى رآها وعلقت حباله بحبالها ، وبادلته حبا بحب وإخلاصا بإخلاص . وملأت فراغ قلبه وعقله ، كما ملأ هو فراغ قلبها وعقلها ، وأصبح هذا الغرام الجديد الشغل الشاغل للعاشقين الفتيين : فلم يخطر قلبها إلا بحبه ولم يكن يخطر قلبه إلا بحبها : وحتى أصبح غرامهما مضرب الأمثال ، وإخلاصهما موضع إعجاب الكثير من الناس

***

وفى الحق لقد كانت « هيلين » على جانب كبير من الجمال النضير والملاحة الفاتنة ! كانت كالزهرة النقية البيضاء ! طاهرة القلب عالية النفس دمثة الاخلاق : لعوب ! لا تفارق ثغرها الابتسامة تلك الابتسامة العذبة التى أخذت بمجامع قلوب كثير من عارفيها . وقصارى القول أنها جمعت

هيلين فى شبابها

---

(١) مترجمة مع تصرف .

كل صفات الأنوثة الرقيقة التى جعلت القلوب تتهافت عليها تهافت الفراش على الانوارالساطعة والاضواء اللامعة ولا ينوبها من ذلك إلا الحرق والهلاك من « ميلانو إلى هيلين » .

ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن [1] فى حديقة القصر الذى أقيم فيه : طائر يردد بصوته نغمات حزينة شجية فى الصباح الباكر من كل يوم ـ ويعود فيفعل ذلك فى المساء إذا جن الليل وخيم السكون على الكون : وأسمعه وأنا راقد فى مضجعى . فتهيج أشجانى وتعاودنى الذكرى فأبكى لبكائه بكاء صامتا حتى تتبلل وسادتى: ليت شعرى ؟ هل قست الأقدار حتى على هذا الطائر المسكين أيضا ياهليين ؟ ياعجبا : كنت أخرج كل يوم إلى أزهار البنفسج الجميلة فاقف أمامها كل يوم : لأتسلى بمناجاتها وأسائلها عنك . ولكنى الآن عليها حزين كئيب .

فقد خرجت اليها هذا الصباح كعادتى كل يوم ، فرأيتها ذابلة باهتة تعلوها صفرة الموت ، وقد تساقط عدد منها على الأرض وتناثرت أجزاؤه فأثر فى نفسى هذا المنظر تأثيراً عميقا : ليت شعرى ماذا أصابها ؟ وما الذى دهاها ؟ هل لها خدن قد نأى عنها فتراها ذاوية من حزنها عليه . ؟

(١) أى جور ٢ خل .

قبلى بالنيابة عنى يد والدك البار ، وسلامى عليك ياحياتى الف سلام .

(ميلانو دافيد)

من هيلين إلى ميلانو

وصلت رسالتك الرقيقة « ياميلانو » فكانت بلسما[1] لأشجانى وتريا قالهمومى وأحزانى . فقد برح بى الهم الطويل لغيابك ، وطال بى السهد والأرق لشوقى اليك وكلفى بك . فالحمد لله على سلامتك ياحبيبى ألف حمد .

أخبرك بكل سرور أنى انتهيت من دراستى بالجامعة ، وقد خاطبت والدى العزيز فى شأن زواجنا . فأبدى ارتياحا عظيما بهذا الأمر وترك لى الحرية فيه . ألا فاشكره معى ياميلانو، فلم أر فى الآباء نظيرا له براً وعطفا وحنانا وشفقة . !

إنى أود أن تكون حجرة النوم « فى الطابق الثانى » ياميلانو. وأن أختار ستائرها بنفسى ، إذ أنى أحب اللون البنفسجى الذى تحبه أنت . ، . وسأختارها منه ليبقى رمزاً لحبنا على الدوام أمام أعيننا . .

أقبل على عجل ياميلانو، أقبل على عجل . إياك أن تتأخر إياك .

تقبلى تحيتى .

(هيلين برنچيه)

---

(١) دواء .

فى الناحية الغربية من « بودا بست » عاصمة المجر قصر جميل هو قصر « المسيو ميلانو داڤيد » ورثه عن أبيه الذى كان من أرباب الملايين ، وهو يطل بأبراجه على نهر « الدانوب » الخضم .

هذا القصر يعتبر من أفخر قصور العاصمة بهجة وراء تقع فى الشمال منه حديقة زاهرة فيحاء ، يحمل النسيم أريجها العبق إلى غرف القصر وساحاته كلما هب . وبه ثلاث طباق كل منها يتكون من خمس غرف .

وقد فرش الطابقان العلويان بالبسط الزبرجدية اللون . وسترت الجدران بالسندس الموشى الجميل : وحليت بالمرايا البلورية الجميلة

ولاعجب ، فقد كان المسيو « داڤيد » والد ميلانو عظيم الثروة والجاه (والمال يفعل المحال ؟ !) هذا إلى كثرة ما فى القصر من الخدم والحشم .

***

ما كادت تصل رسالة « هيلين إلى ميلانو » حتى فرح بها فرحا شديداً وخيل اليه أن الدنيا بأسرها على سعتها لا تكاد تسعه . وأخذ أول قطار - إلى باريس - وهناك تمت له أعظم أمنية يضن بها الدهر على الكثيرين : وعقد قرانه على حبيبته فصار فى لحظة زوجا لها وحبيبا ، بعد أن كاد لا يعدو المرتبة الثانية وهولا يكاد يصدق .

جلس « ميـلانو » وهيلين فى غرفتهما « بقصر بودا بست » ذات مساء . وعلى شفتيهما ابتسامة الغبطة والسعادة . وأخذا يتحادثان فى شئون شتى ويتناقشان : وعرضت لهما مشـكلة « السعادة » فقال ميلانو :

ياعزيزتى هيلين : أن أول درجات السعادة ـ الراحة من الألم ـ ولـكنى أعتقد أن نواميس هـذه الحياة أميل إلى إشقاء النفس البشرية منها إلى إسعادها فالحزن والخوف والملل وغـيرها من الآلام المريرة غرائز فى النفس (وعسير على النفس مقاومة الغرائز) وأسباب هذه الآلام كائنة واقعة فى كل حين اللهم الا إذا استطاع إنسان أن يقاوم هـذه العواطف فان ذلك يكون هو السعيد الموفق

فقالت هيلين : صدقت يا عزيزى إلا أنى أعتقد أن الله تعالى أبر بالناس من آبائهم وأمهاتهم .

ثم انتقلا بعد ذلك إلى غرفة « البيانو » فاخذت « هيلين » توقع عليه قطعة غنائية من وضع الموسيقى العظيم « بيتهوفن » .

القطعة .

أيها القمر الجميل ، أنت نجوى العاشقين ! وسلوى الواهين . أنت ياعروس السماء ! ومنير القبة الزرقاء . حينما تشرق على الـكون ! يمتلئ جمـالا ونورا ! ويفيض بشرا وحبورا ! هاهى البلابل تغرد

والطيور تغنى ! فرحا بلقائك ، وطربا لمقدمك : حييت ياملك السماء حييت .

و بعد أن ثملا بنشوة الطرب قاما إلى غرفة النوم فناما .

***

استقل « ميلانو وهيلين » عربتهما فى مساء أحـد الأيام إلى « مرسح الكورسال » لمشاهـدة الممثل الأشهر ديلسياس : فى رواية (ضحية الفقر) وجلسا فى « بنوار خاص بهما » وكان المسرح محتشدا بالكبراء وعليـة القوم وأطفئت الأنوار . وساد السكون وابتدأ الممثلون عملهم .

ظهر الممثل الكبير فى شخصية بطل الرواية وهو يسير فى غرفته وحده جيئة وذهابا ، ويكاد يسقط على الأرض من فرط الجوع والإعياء . وكانت الغرفة خاوية خالية إلا من مصباح ضئيل النور لا يكاد يضيئها ، ولم تكن ملابسه إلا أسمال مخرقة وأطمار باليـة . وقد جعل المسكين ينظر إلى كأس صغير بالقرب منه وهو يقول هذه العبارات « ليتنى ما خلقت ! وليت أمى لم تلدنى ! رب لقـد فاض الكأس وطفح الكيل ، ولم تعد عندى قدرة على احتمال الآلام وهأنذا أرى أولادى أمامى يتضورون جوعا منذ اليومين السابقين :

بروحى و إن لم تبق منى بقية صغار ورائى ذوق اليتم نوح

أذوب لبلواهم واعلم أننى حملت عليهم ما يجل ويفدح
فصفحا صغارى إن شقيتم بمصرعى وإنى لأرجو أن تغضوا وتصفحوا
وداعا صغارى صير الله يتمكم إلى خير ما يكفى اليتامى ويصلح

ثم قال : اللهم لا اعتراض على حكمك . ولا كفران لفضلك . ولكنى لا أستطيع أن أفهم : لماذا قصرت الأموال الطائلة . والقصور العالية . والغوانى الحسان . والعبيد والخدم ! على فلان وفلان ! وغيرهما من أفراد هذا المجتمع وحرمت عبدك الضعيف حتى من اللقمة يتبلغ بها ، والرقعة يستر بها عورته : يا عجبا : للتين قوم وللجميز أقوام . !

ثم تناول الكأس بيده وقربه من فيه . وقال . مرحبا مرحبا بك ياموت ! يامغيث الأشقياء ومنقذ الغارقين فى كروب هذه الحياة ثم تجرع ما بالكأس : وسقط بعد ذلك على الأرض ، يتلوى على نفسه من شدة الألم ، وبعد برهة صعدت روحه إلى خالقها تشكو من ظلم الحياة وقسوة هذا المجتمع ، فبكت « هيلين » الطيبة القلب فى غرفتها على هذا المسكين بكاء مرا ! .

وحدث بعد ذلك أمر غريب ، ذلك أن الشقى الكبير « مستر هارفى » حاصر المسرح بعصابة أثناء التمثيل ، ثم اقتحمه مع فريق من رجاله شاهرى السلاح : وأمر الناس بصوته المخيف بأن يرفعوا

أيديهم وألا يبدوا أية مقاومة ، وإلا فالويل كل الويل لمن يخالف أمره ، ثم جردهم من نقودهم وحليهم وخرج بعد أن تركهم فى ذهول عميق وغادر الناس بعد ذلك المسرح الى منازلهم . وفى الصباح ظهر فى جريدة « الكورمويل » العنوان الآتى :

عصابة « هارفى » تحاصر مرسح الكورسال ليلة أمس

***

فى فصل الربيع تضطرم القلوب اضطراما ، وتجيش بالحب الفياض لكل ما فى الحياة من جمال ، وترتدى الطبيعة أبهى حللها فتتفتح الورود والازهار عن أكمامها ، وتتغطى الأجواء والمروج بأريج عبقها . وتعود الى الأشجار والحقول نضارتها ، وتعبث أنامل النسيم بالغصون والأوراق كشأنها دائما وتعود طيور الغرد الى الظهور فتشنف الآذان . وتطرب الافئدة بأنغامها الشجية :

دنيا معاش للورى حتى اذا ... حل الربيع فانما هى منظر

أضحت تصوغ بطونها الظهورها ... نورا تكاد له القلوب تنور

من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين لديك تحذر

***

كان من عادة « ميلانو وهيلين » أن يخرجا فى هذا الفصل من كل عام الى القيام برحلة جميلة . فى أقطار العالم ، وقد ظلا محتفظين

بتلك العادة حتى آخر أيام الحياة .

وفى العقد الخامس من عمريهما ، كانت رحلتهما الى السودان : فوقعت لهما فى هذا القطر حوادث عجيبة ، فقد شاهدا طيورا غريبة فى شكلها لم يريا مثلها أبدا . ورأيا أن هذه الطيور من شأنها إذا أرادت أن تطير تحوم حول أوكارها سبعاً قبل أن تغادره ثم تتجه بعد ذلك فى الاتجاه الذى تقصده ، وجاسا كثيرا خلال الغابات والآكام ، وطاردا الوحوش الكاسرة وطاردتهم . وقد حدث أن فهداً اندفع نحو « ميلانو » بكل قوته من خلفه ، ولم يكن يشعر به « ميلانو » . وكاد الفهد أن يقضى عليه لولا أن لمحته « هيلين » وهو يندفع نحو وجها اندفاع القدر : من حيث لا يدرى ، ففوقت إليه سهما أرداه فى الحال قتيلا ، وتعانقا بعد ذلك عناقا مؤثراً ، وشاهدا عدا ذلك البشر المتوحشين من قبائل (نيام نيام) فرأوا أناسا عراة الأجسام الا شيئا صغيراً يستر العورة وهم سود الألوان ، قباح الهيئة . وحينما أبصروهم هرعوا إليهم يريدون افتراسهم ، فأطلق « ميلانو » بندقيته فى الهواء إرهابا لهم ففروا مذعورين . وبعد أن قضيا حقبة هنيئة من الزمن بين تلك الربوع ، شعرا بالحنين الى أرض الوطن ، فعادا اليه أدراجهما بسلام .

***

والآن يرى الداخل الى قصر « المسيو دافيد » بعاصمة البحر فى الركن الغربى من ساحته الواسعة ، قبرا قائما وعليه لوحة مكتوب فيها الفقرة الآتية:هو الحى الدائم ، هذا قبر الوالدين العزيزين السيد (ميلانو دافيد والسيدة هيلين برنجية) الزوجين الذين سعدا فى الحياة حقيقة وعرفا كيف يسعدان .

***

وذلك أنهما ماتا فى وقت واحد (كأنهما نفس واحدة !) ولم يكن بجنبهما وقت الوفاة أحد ، وتركا الوصية الآتية لاولادهما الذين عثروا عليها بعدهما .

أولادنا الأعزاء : قد انتقلنا إلى العالم الثانى ، وكتبنا لكم هذه الوصية قبل الوفاة بساعة تقريبا . فرجاؤنا الأخير لديكم . أن تدفوننا معا فى الركن الغربى من ساحة القصر حتى نأتنس بقربكم ونحن فى الدار الآخرة كما كان شأننا فى دار الدنيا واكتبوا على القبر اللوحة الآتية : هو الحى الدائم الخ .

واعلموا بعد ذلك أن هذه الدنيا زور فى زور وبهتان فى بهتان

بينا يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يُرى خبرا من الأخبار

وما المرء فيها إلا كالممثل على خشبة المرسح يظهر أمام النظارة مدة من الزمن ، ثم يختفى بعد ذلك ولا يرونه أبدا :

وأما أساس السعادة فيها فإراحة الضمير من المزعجات والمكدرات والرضا بالقضاء والقدر وأداء حقوق الخالق والمخلوق وعدم مسايرة الأماني ومسامرة الآمال : فان فى القناعة الراحة الكبرى والسعادة العظمى وختاما نسأل الله تعالى أن يشملكم بعين رعايته وحفظه آمين .

والدا كما

ميلانو وهليلين

***

الريف في الليل

صديق عبد الرازق

تسمع ياعزيزى « فى الريف بالليل » عواء جماعات « الذئاب » وهى تقول (عوعاوعو :) وصراخ الثعالب وهى تقول « بع بع » وهى فى صراخها كالمرأة الثكلى فقدت وحيدها، و إذا سمعها الفلاحون قالوا : إنها العقبان الطائرة ، وكذا تسمع خرير الماء إذا كنت قريبا من أحد قناطر النيل أو أحد هداراته .

وقد تسمع «رنين» الناعورة يساهرها بعض الفلاحين الشجعان

خطاب كتبته إلى صديق المذكور فى سكون الليل ، وكنت أرقت ذات ليلة .

كل هذه الاصوات وحدها هى التى تسمعها فى الفينة بعد الفينة تشق أجواز الفضاء فى الليل البهيم وما عدا ذلك فالكون ساكت صامت يرفرف عليه طائر السكون العميق والصمت الرهيب كأن الدنيا لم تكن تموج بأهلها بين سمع النهار و بصره وكأنها لم تكن منذ فترة وجيزة تضج بالأصوات المختلفة من الناس والحيوان .

كأنِ خيام الحى لم تعمر بأهلها صباحا ولم يسمر بمكة سامر

***

وفى الليل فى الريف يا عزيزى تقع أروع الحوادث وأبشع الجرائم والمجرمون فى الريف قساة القلوب غلاظ الاكباد على جانب عظيم من الشراسة والوحشية الهائلة ، وهم يتكونون من جماعات صغيرة كل جماعة تسمى « منصر » ولا يأتون حوادثهم المريعة إلا فى الليل و بين أستار الظلام .

ومعظم أهل الريف يبكرون فى النوم واليقظة ، حتى إذا أقبلت التاسعة مساء راحوا فى « غطيطهم » العميق وأحلامهم اللذيذة . اللهم إلا جماعات اللصوص والسفاحين الذين يسهرون يرقبون فرائسهم عن كثب من أنفس ومتاع ! وكذلك جماعة الذوات والأعيان أصحاب القصور العالية والضياع الواسعة فانهم قد يسهرون إلى ما بعد الفجر ، يعاقرون بنت الحان وغيرها من المحرمات ، ويلثمون الخدود

الموردة ، والعيون النواعس ، مما أحل لهم ومن غير ما أحل ، ثم ينامون بالنهار حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ! ! .

فهؤلاء السادة قد قلبوا نظام الطبيعة وعدوا على نواميس الكون فجعلوا الليل نهاراً والنهار ليلا .

***

وفى الليل يا عزيزى تسمع صوت ـ البومة المبئس ـ وهى تختفى فى النهار وتهاجم الطيور النائمة الوادعة فى أوكارها بالليل ، فاعجب يا عزيزى من شئون الحياة ! حتى الطيور لها سفاكين ولصوص من جنسها تعكر سعادتها وتزعزع أمنها ! !

وترى الخفافيش أو الثعالب الطائرة ترفرف فى سماء الحجرات النيرة بأجنحتها الرقيقة بعد اختفائها الطويل طيلة النهار المبصر .

***

وإن نسيت لا أنس صوت المؤذن اللذيذ يصل إلى عنان السماء من أعلى المئذنة ، ويتلعلع فى الفضاء فى سكون الليل وظلمته فيحدث فى نفس السامع تفكيراً عميقاً وإيمانا صحيحاً ويذكره بخالقه العظيم أرسخ الذكرى :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

بهذه الخريدة العصماء كان يصيح المؤذن فى سكون الليل الرهيب

فيحدث فى النفس أعذب الحالات وأصدق الايمان .

***

ألا وأشد ما يلفت النظر و يملك الإحساس فى الليل ياعزيزى هو سكونه العميق وظلمته البهيمية ، ذلك السكون الذى يهيج فى النفوس الخواطر و يثير الذكريات الناعمة والمؤلمة :

كم تحت جنح الليل قلب يخفق وتثيره ذكرى الحبيب فيأرق

وكم جنى الليل بسكونه على النفوس البشرية ، فأغرى القاتل بالقتل واللص بالسرقة وأسنح الفرصة للفقراء الذين يتوسدون الغبراء و يلتحفون السماء بالحقد على الأغنياء الناعمين بالغيد الحسان على الفراش الوثير ! وأشعل نار الحسد والضغينة فى قلوبهم الكسيرة وأفئدتهم الحزينة ، وألهب عشاق الأمانى وأصحاب الآمال شوقا إلى لقاء أمانيهم و بلوغ آمالهم فيبكون حتى يبللون الوسائد ، وأثار جماعة المتيمين والعشاق الواهين حنينا الى معشوقاتهم من حور الدنيا و بناتها الفاتنات .

وكم أثاروا من الحنين بين حنايا ضلوع الغرباء والمنقطعين شوقا إلى أوطانهم ومراتع شبابهم .

ورحم الله أحدهم حيث قال وقد جدد سكون الليل فى نفسه ذكريات وطنه العزيز :

وارحمة للغريب فى البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فى عالم الجن

قرأت فى كتاب قديم : أن رجلا صالحا من الانس ، عاش فى القرن الثامن الهجرى ، كان من عادته أن يتهجد بالمسجد فى الوقت المنحصر بين الثانية صباحا والوقت الذى تشرق فيه الشمس ، فى كل ليلة ولم يكن يجد بالمسجد أثناء وجوده سواه .

ومن الغريب أنه كان هناك رجل صالح آخر من الجن يحضر الى هذا المسجد فى كل ليلة و يمكث به نفس الوقت المذكور آنفا وللغرض عينه . فكان يرى الرجل الانسى و يأتم به فى صلواته و يؤمّن معه فى دعواته . و يقتدى به فى كل مايقوم به من صنوف العبادات والانسى لا يشعر به ولا يراه ولا يظن أن المكان يحوى سواه ؛ واستمرا على ذلك أكثر من ثمانية أعوام لم ينقطع أحدهما حسب العادة ولا مرة فأعجب الجن بالانس أيما إعجاب لطول مداومته على العبادة تلك المدة الطويلة من غير فتور ولا ملل .

وعزم على أن يظهر له و يذكر له اعجابه به و يعاهده على أن يكون صديقا له مدى الحياة و يزامله فى عبادة الله تعالى حتى الممات و يعرض

عليه أن يزوجه ابنته (ابنة الجن) وفعلا لم يشعر الانسى أثناء وجوده بالمسجد كعادته ، وكان الظلام حالكا ، والسكون شاملا إلا وصوت يقول له : السلام عليكم ورحمة الله ، فارتاع الرجل ورد التحية على ملقيها ، وثبت ولم يمهد للخوف من نفسه .

فتقدم منه صاحب الصوت وعرفه بنفسه ، وذكر له ماحدثتك عنه فى سابق الكلام . فقال الانسى الصالح أما ماذكرت من أمر الصداقة فمستطاع وأما الزواج بابنتك فلا أراه ممكنا ، فهى « جنة » وأنا « إنس » ، فقال الجن انك لن تقع عينك عليها إلا فى صورة أنسية (سيدة من أجمل السيدات) وسوف ترى منها حين العشرة الزوجة الصالحة الموافقة التى لا تعرف لها راحة سوى راحتك . ولا سروراً سوى سرورك .

فقبل الرجل وتواعدا على موعد يعقد فيه العقد وحل الموعد ورأى الرجل العروس قبل العقد كما هو الشرع ، فاحبها حباً شديداً وزفت اليه فى رهط من قومها الجن الذين ظهروا جميعا فى صور رجال من ذوى الوجاهة ، وأفهم الرجل قومه أن أصهاره أناس من ذوى الحسب الرفيع والنسب العالى . وأنهم من البلدة (الفلانية) التى تبعد عن بلدته بمقدار مسيرة يوم وصدق الناس قوله . وعاش الرجل مع زوجته ، تلك الزوجة الغريبة ردحا كبيراً من الزمن

كان فى أثنائه أحب الأزواج إلى زوجته وأكثرهم غبطة بها وسروراً حتى كان ينسى فى كثير من الأحيان أمرها ويحسبها « إنسية » .

***

وحدث ذات مرة أنه كان يستحم فى غرفة بالدور الثانى من منزله ، وكان بالغرفة التحتية لهذه الغرفة ابنتهما الصغيرة التى أنجبها منها فى هذه المدة ولما كان الجو بارداً جداً فقد أوقدت له « زوجته » ناراً يصطلى بها : وبقيت معه لخدمته ! إلا أنها سمعت طفلتها تبكى بكاء مزعجا فى الغرفة التحتية ، فاعتملت فى قلبها عاطفة الشفقة الأبوية ، فاستأذنت زوجها فى أن تذهب إلى الطفلة لترى ما بها : وأذن لها فنزلت . ولما صارت عند الطفلة انطفأت النار التى كانت قد أوقدتها لزوجها . ودخنت حتى ملأت عليه الغرفة : ولما تضايق من الدخان نادى على زوجته لتغيثه وتوقد النار : فلما علمت أمر الدخان ومقدار تضايق زوجها منه وهى تحرص الحرص كله على رضاه وراحته . ورأت أنها لو انتظرت حتى تصعد أبطأت عليه : أطالت عنقها جداً ! وأنفذته من فتحة صغيرة فى سقف الغرفة التحتية كانت قد ثقبت لدخول الضوء والهواء خصيصا وصارت معه برأسها وعنقها ومع ابنتها بباقى جسمها : وبذلك أوقدت النار وأذهبت ألم الابنة إلا أن الزوج ارتاع من هذا المنظر ارتياعا عظيما ، ورسخت

فى ذهنه تلك الصورة المخيفة لاتبرحه فى منام ولا يقظة حتى اعتلت صحته وضعفت أعصابه : وكان أبوها قد علمه « تعزيمة » يستحضره بها عند اللزوم . فقرأ التعزيمة واستحضر أباها وقص عليه : القصة . ثم طلقها ومات بعد ذلك بقليل .

***

وفى سنة ٢٣ وقعت لامرأة من أهالى « أجهور الصغرى » من أعمال القليوبية حادثة غريبة أخرى من هذا النوع أيضا . وذلك أنه كان لهذه المرأة ولد واحد . وكان أعزبا لم يتزوج بعد ، وكان هو الذى يعولها . ومن عادته الا ينام بعيداً عن منزله مطلقا ولا يغيب عن أمه أبداً .

وحدث أنه اضطر ذات مرة أن يبيت بعيداً عن أمه ومنزله فنامت أمه وحدها فى المنزل : بعد أن طال انتظارها له و يئست من مجيئه : وفى الهزيع الأخير من الليل استيقظت من نومها على صوت طرق شديد على الباب الخارجى للمنزل : وسمعت صوت هاتف ينادى باسمها : فقامت من فراشها . وذهبت لترى من الطارق ؟

ودهشت إذ رأت فتاة تشبه « عزيزة » ابنة جارتها من كافة الوجوه . حتى ماشكت مطلقا فى أنها هى «عزيزة » بعينها . فسألتها المرأة ماذا تريد ؟ فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ فقالت الفتاة .

فى لهجة قروية ساذجة « عاوزه المنخل علشان نعمل رقاقتين لامرأة أخى لأنها ولدت الساعه دى » فدخلت المرأة وأتت « بالمنخل » المطلوب

ولما مدت الفتاة يدها لتتناوله رأت المرأة أن أصابعها عبارة عن « مسلات حديدية » شائكة شاكتها بها . ولم تمهلها هذه الفتاة بل صرخت فى أذنها صرخة أذهلتها . عن نفسها ثم قادتها وتركت الدار مفتوحة على مصراعيها تندب من بناها وسارت بها تمر بها فى الحقول والمزارع وتخيضها الترع والقنوات وتمشيها فوق الأحجار والأشواك ، حتى تورمت قدماها ، وسقطت مغشيا عليها من شدة الإعياء

وعثر الناس عليها فى الصباح ملقاة فى الطريق . فعالجوها حتى انتعشت وعاد اليها رشدها بعد لأى وجهد . واستفسروا منها عما أصابها فأخبرتهم بقصتها وهى تبكى بكاء مراً . وصارت قصتها حديث الناس فى المجالس ردحا كبيراً من الزمن

***

وقص على شيخ هرم هو جد صديق لى معروف بصدقه وتقواه الحادثة العجيبة الآتية . قال : فى شتاء عام سنة ١٩٠٠ أيام عهد الخديوى « عباس حلمى الثانى » اتفقت مع « عمك على » أن ينادى علىّ قبل الفجر « لنعلق الساقية » من بدء ذلك الوقت حتى الصباح لرى « القمح »

وفى الموعد المذكور : سمعت طرقا شديداً على الباب أيقظنى من نومى وسمعت صوتا كصوت « صاحبى » يذكرنى بالإتفاق و يستحثنى على الخروج بسرعة قبل طلوع النهار ! وضياع الوقت : فقمت من نومى وارتديت ملابسى وسحبت « الجاموسة » وأخذت « عباءتى وعصاتى وخرجت اليه . فوجدت شخصا لم أشك مطلقا فى أنه « عمى على » السابق الذكر . ومشيت ومشى الشخص إلى جانبى يحادثنى وأحادثه : وكان الجو بارداً والهواء شديداً . ووصلنا إلى الساقية . فألقيت بعصاتى « وعباءتى » جانبا وعلقت الجاموسة ثم قلت له « إبق أنت هنا لسواقة الجاموسة وحراستها . وأنزل « أنا » أمام « المية » . فوافقنى .

ولكنى ما سرت قليلا . حتى سمعته يقول لى « طيب قف لم أقولك كلمة » ولما اقترب منى ضحك فى وجهى ضحكة مرعبة لم أسمع مثلها فى حياتى . ثم مد يده إلى يدى فاذا هى مسلات « فولاذية » حادة تنفذ فى الصم الصلاب . فتمشت فى جسدى رعدة شديدة وامتلأت رعبا حتى ذهلت عن نفسى

لولا أن تداركنى الله بلطفه فأرسل الى « عمك على الحقيق » وأنا على هذه الحال لقضى على من شدة الخوف . إذ أنه صحا من نومه وأتى إلى منزلنا وسأل على فأخبرته زوجتى بأن شخصا هو

« عمى على بعينه » نادى علىّ وأخذنى ومشى ، ففطن الرجل إلى أنه لابد فى الأمر شئ : وأسرع إلى مكانى وأنقذنى من الخوف القاتل

***

وحدثنى صديق لى مدرس بمدارس مجلس مديرية «البحيرة الابتدائية » قال تقرر نقلى من البلدة التى كنت فيها إلى أخرى تبعد عن الأولى بمقدار ٧ أميال فذهبت إلى القرية الجديدة وأكتريت منزلا ونقلت اليه أثاثى وزوجتى :

وعدت فى مساء ذلك اليوم إلى المنزل بعد العشاء ، وكان المنزل قديما جداً مبنى على الطراز القديم وحجراته السفلى متهدمة : وكان له ردهة كبيرة ففتحت الباب ودخلت من غير أن أعلم زوجتى بقدومى ولكن ما كدت أتنصف الساحة : حتى رأيت شبحا هائلا جداً قد تحرك من أحد الزوايا المظلمة وجاء إلى يقول : وعليكم السلام أهلا وسهلا بصوت مهيل جداً :وعيناة تلتهبان كأنهما جمرتين وأسرع إلى وطوقنى بذراعين طويلتين هائلتين : فصرخت صرخة دوى على أثرها المكان وسقطت على الأرض : وسمعتنى زوجتى فأسرعت إلى وهى شاردة اللب : وسمع الجيران ولكنهم أطلوا علينا من نوافذ منازلهم بدل أن يأتو إلينا كما كنت أنتظر : ذلك لأنهم كانوا يعرفون من أمر هذا المنزل المشئوم مالا نعلم .

وأفقت من غشيتى فأسرعت «أنا وزوجتى» إلى الدور العلوى حيث مقر سكنى : وهاج الحى وماج وأخبرنا أهله أن هـذا المنزل مهجور من زمن كبير لهـذا « الجن » الخطر المقيم به : وأنه لم يكن أحد يجرؤ على السير أمام بابه بالليل فضلا عن السكنى ! !

ثم أنزلونا من النافذة إلى الحارة بوساطة سلم حيث نمنا فى منزل « أحـد الجيران » حتى الصباح : وعزلنا منه : وقـد شاب معظم « شعر رأسى » فى تلك الليله !

ولم أكن أصدق بظهور الجن : فصدقت من تلك الليلة

***

عبد الحميد بك

شخص كان يعيش بين أظهرنا . له « خاصية غريبة ! » تجعله شاذاً عن الناس تلك هى الميـل الشديد إلى التظاهر الـكاذب

وسأقص عليـك طرفا من حوادثه التى تنسب إلى تلك الناحية الضعيفة من نفسه

دخلت عليـه ذات يوم وكان فى رهط من أناس أعتادوا أن يلتفوا حوله و يتملقوا له ليفوزوا برضاه . شأن الفقراء مع الأغنياء فى كل زمن ! وكانت بيده « جريدة اللواء » التى كان يكتب فيها

المرحوم الشيخ « جاويش » حينذاك، وما لحق « البك » مقبلا حتى قرب الجريدة من بصره بسرعة ؛ شأن الأطفال حين يلتهمون « التمرة » فى سرعة وطيش ! وأخذ يمر ببصره على سطورها ويحرك شفتيه ببطء . شأن من يقرأ حقا ، مع أن مقدرته فى الكتابة والنهجى لم تزد عن كلمات مفتوحة من نوع (دَخَلَ وخَرَجَ)

وسلمت ثم جلست . فنظر إلى وقال : أهلا وسهلا فقلت بك ومرحبا : ثم عاد إلى الجريدة يصنع بها ما كان صانعا حين لحق مقبلا : وما كان أعظم دهشتى حين رأيته يفعل ذلك بالجريدة وهى « مقلوبة » الوضع ! ! وقد جعل عاليها سافلها

وطلب اليه « عمى حسن » وهو رجل أمى وكان أكبر الجالسين سنا أن يسمعه قطعة عينها له « فى قسم الحوادث المحلية » وكان نص هذه القطعة

: أنحرفت صحة اللورد كرومر اليوم : فقرأها كما يأتى

(أنجَرْفَتْ صِحْنْ كَرْوَمَرْ) فلم أتمالك نفسى هذه المرة وقهقهت قهقهة عالية . مدعيا أن الذى أضحكنى شئ خطر ببالى :

وطلب اليه آخر أن يقول له مضمون — المقالة الافتتاحية — وكانت خطبة للمرحوم مصطفى باشا كامل فى مضار الاستعمار و إذلاله للشعوب . فقال حضرته :

(دا بيقول أن صاحب الدولة السلطان رشاد عيان قوى والحكما بيجروا عليه) فلم أتمالك نفسى وأغرقت فى الضحك وقلت الله يشفيه ! !

وأقام بمنزله مرة مأدبة لبعض السادة « العلماء » الذين كان يدعوهم إلى مائدته فى الفينة بعد الفينة بغية المفاخرة والمباهاة وليقول أنهم أصدقائى وأصحابى : فجعل يقول على سبيل الترحيب كما هى العادة المتبعة « مرحبا بكم أنتم شرفتمونا قوى جداً . أشرقت الأنوار وقطعت الإزار ! ! » فنظر بعضهم إلى بعض : وكادوا يقهقهون ولكنهم تمالكوا أنفسهم : وقال قائلهم : شرف الله قدرك يا عبد الحميد بك وقال أيضا موجها قوله إلى خادمة « هات يا ولد القنجر قدام الشيخ متوضعوش على القرض » وكان أحد الشيوخ فطنا فقال موجها القول إلى الموجودين ممن دون البك فى الثروة والجاه ومقصده « إياك أعنى واسمعى ياجارة » يا أولادى : لا يصح لواحد

عبد الحميد بك أيام عزه ومجده

منكم أن يتكلم باللغة العربية مادام يجهل قواعدها :فقال « البك » فى سرعة الأطفال وهو جهم (قل لهم ياسى الشيخ قل لهم ! وحق القلاه أنا عجبت لهذه الناس !) فقهقهة الجميع على الغبى الذى لم يفطن إلى أنهم عليه يضحكون !

***

وقص على خادمه أن سيده « البك » كان يسير فى بعض أسفاره فى عاصمة « الجيزه » فمر أمام « سراى » عالية البروج :ذات بهاء ورواء . . . كسانبات « اللبلاب » سوارها بأغصانه الجميله وطرزها بزهره البهيج

كساها من الأنوار أبيض ناصع وأصفر فقاع وأحمر ساطع

فرأى أناسا عليهم سيماء الوجاهة والنعمة . يدخلون إلى ساحاتها جماعات و وحدانا ، فسأل عن ذلك فقيل له هم « العمد » وهم مدعوون من قبل سعادة « المدير » لشأن خاص بالأمن العام فدخل من فوره وقال و رأى « ياحسن » فدهشت جداً لجرأته و زجه بنفسه و إياى فى مثل هذه الورطة . ولكن لم أجد بداً من الطاعة

ولما دخل ظنه الحاضرون واحد منهم « لبهاء منظره وعظيم وجاهته » وماظنك بشخص يرتدى ـ جبة وقفطانا ـ من أفخر القطانى وأرقى الاجواخ ، ويمسك بيده « مذشه » مفضضة اليد وورا.

غلام يحمل له الحاجيات ـ فقام له القوم إجلالا و إحـتراما ، وكل يقول فى رجاء وتوسل « تفضل هنا ياحضرة البك » فانتفخ صاحبنا وتوترت أوداجه و بعد أن أخذ مجلسه بينهم ، أخرج صندوقا من لفائف « التبغ » الباهظ ثمنها ـ وتقدم به اليهم واحداً بعد الآخر وهم يرمقونه بنظرات الجلال والاعظام

و بعد ذلك أخذ يتحدث معهم عن مبلغ حزمه ومهارته فى إدارة بلده وقدرته على كتم أنفاس الاشقياء وتعقب اللصوص : و بينما هو مستغرق فى الحديث وهم مستغرقون فى السماع إذ « بحاجب المدير » يخطر القوم بحضور مولاه ، فقام القوم تحيـة « للمدير » و إعظاما ثم أخذ فى مناداة أسماء الحاضرين من حضرات العمد ، وكل من يسمع أسمه منهم يقول « نعم » ثم يجلس : حتى إنتهت الأسماء التى أمام « المنادى » وجلس الجميع ماعدا « عبد الحميد بك » فانه ظل واقفا « كالناطور » لايميل يمنة ولا يسرة فتلفت الـكل اليـه ، وعرت وجوههـم سحابة من الغرابة والخجل ! وكدت أذوب أنا الآخر بدورى لحاله وكسوفا لما آله

فنظر اليه « المدير » ثم قال فى شـدة وعنف : وأنت ماشأنك يارجل . ؟ فارتبك » وامسك لسانه » فتوسط الجميع لدى « المدير » وقالوا لعل الرجـل بعقله خبل ؛ فا كتفى بتو بيخه وطرده . فخرج من

فوره يريد « مسقط رأسه بالريف » وركب ـ فى الدرجة الأولى ـ ن القطار

***

وحدث فى رمضان سنة ١٣٠٠ أن ذهبت لزيارته كما هى عادة الناس فى هذا الشهر يزور بعضهم بعضا فأخذ يتحدث إلينا أنا والحاضرين قال : كنت « من قيمة ثلاث أيام » عند محافظ العاصمة فقال لى ياعبد « الحميد بك » الحكومة عاوزه تعملك حكمدار ! علشان أنت خسارة : ثم يعقب ذلك بقوله (ولكن أنا مبديش !) فيوافقه الحاضرون « و يقول قائلهم » والله يلزمك ترضى « يابك »

وهذا شأن الناس ! ! إذا قال الغنى رأيت فأراً يقرض بأسنانه الحديد ! وافقوا وصدقوا : و إن قال الفقير : رأيت فأرا يقرض بأسنانه « القديد » يعنى الخبز اليابس : أنكروا وكذبوا والمال للانسان فتان ! !

وذكر لى أخ من إخوانه . الذين يطلعهم على دخائله و يستودعهم أسراره ، أن خلقه ذلك الدنئ ، وخاصته تلك السافلة ، دفعت به ذات مرة فى مأزق من أدق المآزق وموقف من أحرج المواقف

ذلك أنه كان مسافراً إلى العاصمة فى يوم من أيامه . لشأن من شئونه . فأبى عليه حبه للتظاهر الكاذب والادعاء الباطل : إلا

أن يظر بمظهر الكبار من الأغنياء والعظماء من الأثرياء ! وأن ينزل « بفندق شبرد » حيث تذهب الثروات الضخمة . وتنفد الأموال الطائلة . فأقام يومه وبات ليلته يأكل من الطعام الشهى والشراب الروى : وينعم بالنمارق المصفوفة والزرابى المبثوثة :

ولما أنقضى مأربه من القاهرة . رغب فى العود إلى وطنه : فطلب أن يوقف على مقدار ماعليه من دين « للفندق » من إدارته

وما كان أشد غمه وأرتباكه حينما رأى أن مافى جيبه لا يفى غير جزء يسير من دينه ، وجلس يبحث عن سبيل للنجاة ؟ ويفكر فى الخلاص من هذه الورطة ؟ وبعد بحث طويل وتفكير عميق

قر قراره على أن يتغفل الخدم ويفسل من حيث لا يشعرون فأدرك القوم نيته وعرفوا ماعزم عليه ، فأخذوا فى مراقبته من حيث لا يشعر حتى ضبطوه ، وهو يحاول الفرار والهرب وكانت فضيحة وكانت ضجة ! وأخذ حضرة الغنى الزائف والسرى الكاذب يتوسل ويتذلل : فلم يغن عنه ذلك شيئا ولم يجده فتيلا ! !

وآخر ماوصلت إليه رأفتهم به ، وإجابتهم لتوسلاته أن يحضروا أهله من بلده « بالتلغراف » ليسددوا عنه ماعجز عن أدائه ، ويحجزوه لديهم ريثما يحضر من سوف يحضر . وفعلا نفذوا ما أرادوا وشد القوم رحالهم إلى القاهرة ، وهم يظنون أن أخاهم أغتالته يد المنون ، وأنهم

لن يرجعوا به إلا على آلة حدباء محمول ، وما كان أشد خجلهم وحزنهم حينما عرفوا الحقيقة وفهموا جلية الأمر . فعادوا بنفوس كسيرة ! وقلوب حزينة كما يعود القائد المنهزم من ساحة الميدان ! .

تلك شنشنة « عبد الحميد بك » الذى أحدثك عنه وما أكثر أمثاله بين ظهرانينا فهل تدرى الآن ماذا كان مصيره؟ إن كنت رأيت الشحاذ كيف يستجدى السابلة والسائل كيف يتوسل الى المارة فقد عرفت مصيرك اليك و وقفت على ما آله وما ربك بظلام للعبيد . . ؟

« عبد الحميد بك » أيام فقره و بؤسه

وكل جراحة فلها دواء ... وخلق السوء ليس له دواء
وليس بدائم أبداً نعيم ... كذلك البؤس ليس له بقاء

فى فردوس الحياة

اسمه « فؤاد » وهو أخى وصديقى ، دخل « فردوس الحياة » فى عنفوان شبابه وميعة صباه ، فى هذا الطور الجميل اللذيذ من حياة كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ذلك الطور الذى تحن فيه القلوب إلى المرأة الحنين المضطرم الفياض الذى نعرفه « أنا وأنت »

وأعنى « بفردوس الحياة » حياة الحب المتوقد « المتبادل بين قلبين » .

***

كان قبل أن يعرف « الحب » لايحفل بالحياة كثيراً ولا يرى فى أى منظر من مناظرها ولا فى أى شئ من أشيائها منظرا بهيجا ولا شيئا جميلا : فلما عرفه تغيرت حاله ، وصار شيئا جديداً

نخرج إلى « المروج » فى نزهة ، فلا يكاد يقع نظره على الحقول الخضراء ، حتى تقرأ على وجهه أمارات السرور والطرب بمنظرها واضحة جلية : ثم يقول لى : ماأجمل هذه الخضرة ياصديقى وماأشد بهجتها ! وماأجمل الحياة بأسرها ، وكنت قد علمت بحالته الجديدة

حدث وقائع هذه القصة فى حى المغربلين بالقاهرة سنة ١٩٢٠ ميلادية .

وكتمت عنه معرفتى بها ، فقلت له : أليست هـذه « المروج » وهاتيك الحقول هى بعينها التى كنت تراها من قبل اليوم ؟ فما الذى غير حالك وجعلك تنظر اليها بمنظار الجمال والطرب اليوم ؟

وقد كنت قبل اليوم لا ترى فيها الذى ترى ؟ فقال : صديقى ! سأخبرك بشأنى إذ لا يجوز فى شرعة الإخـلاص أن أكتمه عليك « وأنت صديقى الوحيد » غير أنى أشترط عليك أن تدفنه فى مجاهل نفسك ، ولا تبز به إلى أحـد ، فهل تعاهدنى على ذلك ؟ فقلت نعم : فأخبرنى ولا بأس عليك :

***

فقال الحقيقة أنى دخلت « فردوس العشق » ومنذ ذلك الحين انقلب كيانى وتحول إلى شخص متلذذ دائما يرى فى كل شئ من أشياء الحيـاة معنى جميلا ! وفى كل منظر من مناظرها ثغوراً باسمة ووجوها ضاحكة : لذلك : ترانى لا أحب أن أفارق هـذه النباتات الغضة الجميلة ، ولا هذه الأشجار والغصون المياسة المترعرعة ولا هذه السماء البلورية الشفافة التى فوقنا وكأنى أسمع فى هبوب الرياح ومناغاة الطيور وخرير المياه فى الجـداول وحفيف الأوراق على الأشجار أصواتا موسيقية مشجية للغاية التى ليس بعدها بغاية ، وإنى أنظر إلى المستقبل نظرات حلوة معسولة .

فألمت بنفسى سحابة من الإشفاق عليه ، وخفت عليه أعاصير الحياة الجديدة التى دخلها : ولـكنى كتمت عنـه ماألم بنفسى فى نفسى وقلت له على بركة الله ياعزيزى ، وأسـأل الله لك التوفيق والسعادة فى حبك .

***

ماأسعد العشاق إذ تسمو بهم حـلم الغرام إلى العلا وتحلق
إن كانت الدنيا ظلاما حالـكا فى أعـين فلهم تضئ وتشرق
الحب يكسبها جمالا فاتنا ويمد فى أطرافها ويعمق
وحقيقة الأكوان وهو كما نرى خرساء فى لغة العواطف تنطق
والحب يشرق فى القلوب فينجلى بشعاعه فى الـكون كل ماهو مغلق

***

فى مارس سنة ١٩٢ نزل « بنعمت » مرض خطير ، أذبل شبابها الغض ، وقوض أركان قوامها الرشيق ، وأحضرلها أبوها نطس الأطباء فعجزوا عن علاجها . فاسودت الحياة فى عين صديقى ورأيت من أوجب الواجبات على أن ألازمـه ، حتى تنـكشف محنته أو يقضى الله أمراً كان مفعولا :

فارقته بشاشته ولازمه العبوس والتقطيب : وتجافى به مضجعه : فما كان يذوق النوم إلا غراراً ، تراه فتقرأ على وجهه أمارات الألم العميق

الذى يكمن فى قرارة النفس ، شارد دائما ، ذاهـل أبداً ، حزين ، كئيب ، ساكن سكونا غريبا ، وقد أخذت نضارة الشباب و يناعة الفتوة تساقط من على جسمه كما تساقط فى الشتاء أوراق الأشجار ، طال مرض الفتاة ، وتضاءلت صحة صديقى حتى خفت عليـه الهلاك

فقلت له ذات مرة : قد كنت تنهانى عن الحزن قبل اليوم ؟ فلم أراك تقع فيه اليوم وتسلم له قيادك ؟ وهل الذى خلق « نعمت » لم يخلق غـيرها ؟ فاغرورقت عيناه بالدموع وقال لى : إن حبى «لنعمت » ياصديقى ليس بالحب الشهوانى الذى تطفئه « العناقات والاحتضانات وخلوة الزوج بزوجه » وتلك غايته من الصبابة ومتى بلغها فتر وبرد ، ذلك الحب السطحى الذى يقع فيـه معظم أفراد المجتمع الإنسانى من رجال ونساء حتى إذا ماقضوا شهواتهم وشبعوا ولوظهورهم :

و إنما هو حب « الروح لذات الروح» والنفس لذات النفس والأنفس خالدة ثابتـة لايعتريها الفناء ولا التحول ، فالحب الذى يقوم بينها لابد ثابت دائم متوقد : وهذا هو الحب بمعناه الصحيح

ثم اندفع فى البكاء والعويل وحاولت إسكاته : فأشار إلىّ وقال والعبرات تخنقه : عاودتنى الذكريات ياصديقى وتدفقت علىّ ولست بمستطيع لها دفعا : فأرجوك أن تدعنى وشأنى .

وكذا مثال العاشقين خواطر فياضة وعواطف تتدفق
تشجيهم الذكرى فيتبعونها حتى إذا علقوا بها تتفرق
فاذا بهم فى ذكريات جمة تشدو القلوب بوصفها أو تشهق

***

فى نهاية مايو سنة ١٩٢٠ جاء إلىّ أخ صديقى الصغير ليلا وعلى وجهه تلك السحابة التى ترى على وجوه الأطفال عند نزول الخطوب الحسام بذويهم ، وطلب إلىّ أن أسرع إلى أبيه لأنه فى ساعة الاحتضار وهو يريد أن يفضى إلى بشأن قبل أن يفارق الحياة فهرولت اليه وأنا كالمخبول ، لاأشعر بمكان نفسى من جسمى . فرأيت و يالهول مارأيت ! رأيت الرجل فى حالة النزع ، وأولاده وضمنهم صديقى طبعا من حوله يتصايحون و يبكون والأم تتفحم انفجاما مراً وأشار إلى الرجل فدنوت منه فهمس فى أذنى « أوصيك بصديقك خيراً ، فانى أفارق الدنيا وأنا خائف عليه مما وقع فيه » : ثم أسلم الروح

***

ساءت أحوال صديقى بموت أبيه الذى جاء ضغثا على أبالة : ولم يقو على مقاومة تلك الصدمات القاسية من الدهر . فلزم الفراش وانتابته حمى شديدة الوطأة ، فظن أنه مقضى عليه لامحالة ، فدعانى وأخرج لى من جيبه علبة صغيرة من الفضة مكتوب عليها « تذكارات نعمت » ثم قال أقعدونى ، فأقعدناه : فأنشأ يقول فى لغة خافتة ضعيفة :

أرى أننى مقضى على لامحالة ياصديقى ، وأرانى أسير فى طريق الفناء بخطى حثيثة ، فخذ هـذه « العلبة » فهى ومابها إمانة لى فى عنقك تردها الى « نعمت » عند ماينتهى أجلى ، وتنفض يدك من تراب قبرى ، وأسـأل الله أن يجمعنى بها وبكم فى الدار الآخرة ، مادام قد حرمنا اللقاء فى دار الفناء .

فهبط دمى حتى لم يبق منه فطرة واحدة فى وجهى ، وغص ريقى من مرارة هذه المواقف وقسوتها : ولـكنى تشجعت وقلت له لابأس عليك ياعزيزى : فأنت ستبرأ من مرضك إنشاء الله قريبا جـداً وكذلك « نعمت » وستتمتعان ببعضكما أمداً طويلا : فتشجع فانى لاأحب أن أراك ضعيفا إلى هذا الحد . فأشاح بوجهه عنى وسكت .

***

ما أعجب تقلبات الأيام وأغرب تصاريف الاقدار : فى ابرايل سنة ٩٢١ ميلاديه : عادت السعادة الى صديقى من جديد وعاد يمرح فى فردوس الحياة « الحب » كما كان أولا : بعد أن قست عليه الحياة هذه المدة الطويلة : وعاد الدهر يبتسم له ، وعاد ينظر إلى الدنيا ومابها كما كان يراها فى بدء عهده بالحب فى يناير سنة ١٩٢٠ جميلة جذابة : ذلك لأنه أبل من مرضه وشفيت من مرضها وعاودتهما الفتوة الأولى وأفترنا وعاشا فى غبطة مابعدها غبطة ، وهو اليوم محتفظ « بعلبـة التذكارات » كأعز شئ لديه : بل هو اليوم يضحك ويلعب ويلهو ويطرب كشأنه أولا : وكذلك الدهر حالا بعد حال ؟